العقلُ في القرآنِ الكريمِ
دراسة تفسيرية في المفهوم والألفاظ والوظائف

أ.د. محمد كاظم حسين الفتلاوي
كلية التربية المختلطة / جامعة الكوفة

Mind in the Holy Quran
an explanatory study of the concept, terms and functions

Prof.Dr. Muhammad Kazem al-Fatlawy
University of Kufa / College of Education
Email: mohamadk323@gmail.com

ملخص البحث

العقل سر وجود الإنسان، وهو مناط الثواب والعقاب، وعليه التكليف وبه فضّل الخالق سبحانه الإنسان على سائر المخلوقات، وبصلاحه صلاح للفرد والمجتمع، وإذا عطل وأهمل في وظائفه كان خسارة على صاحبه وهلاك للمجتمع.

وفي هذا تكمن أهمية البحث في محاولة من الباحث في بيان العقل الحركي عبر الشواهد القرآنية وآراء المفسرين فيها.

أما سبب اختيار موضوع البحث؛ فيرجع إلى رغبة الباحث الشخصية في خدمة القرآن الكريم والاسهام في نشر معارفه بما يخدم شبابنا المسلم.

وخطة البحث من مقدمة وثلاثة مطالب، المطلب الأول: مفهوم العقل، والمطلب الثاني: ألفاظ العقل في القرآن الكريم، والمطلب الثالث: وظيفة العقل في القرآن الكريم، تلتها خاتمة وقائمة بالمصادر.

الكلمات المفتاحية: العقل، القرآن، ألفاظ العقل، وظائف العقل.

Abstract

The mind is of great importance in human existence and is a cause of reward and punishment.

In this lies the importance of the research in an attempt by the researcher to clarify the mind through the Qur'an and the opinions of the commentators therein.

The reason for choosing the research topic; The researcher's desire to serve the Holy Quran and contribute to the dissemination of its knowledge.

The research plan consists of an introduction and three demands, the first requirement: the concept of reason, the second requirement: the terms of reason in the Holy Qur'an, and the third requirement: the function of reason in the Holy Qur'an, recited by a conclusion and a list of sources.

Keywords: the mind, the Qur'an, the words of the mind, functions.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

أما بعد..

للعقل في دين الإسلام منزلة سامقة لم تبلغها أية موهبة أخرى من مواهب الإنسان، فالعقل هو المفزع في تمييز الخير والشر، وتبيين الحق من الباطل، والإرشاد للهدى وتجنب الضلال، وبإعمال وظائفه تكون الهداية وبخلافها تقع الغواية، والعقل بهذا هو سر التفاضل في درجات بني البشر، فهو الملاك في حصول المنزلة الرفيعة والكرامة السامية في الدنيا، وهو المدار في استحقاق المثوبة أو العقوبة في الأخرى.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (لما خلق الله العقل قال له أدبر فأدبر، ثم قال له أقبل فأقبل، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أحسن منك، إياك آمر، وإياك أنهى، وإياك أثيب وإياك أعاقب)[1].

وتكمن أهمية البحث في كونه تذكير للإنسان المؤمن في هذه الحياة الدنيا ، وتحذيره من مزالق النفس وغواية الشيطان، والتأكيد على التزام ما وضّحه القرآن الكريم في آياته تصريحًا وتلميحًا على ضرورة إعمال العقل لتحقيق النجاة والفلاح في الدارين، وهذا بطبيعته جزء من التدبر الذي كُلفنا به في كتاب الله العزيز.

اما سبب اختيار موضوع البحث؛ فذاك لرغبة الباحث في خدمة القرآن الكريم ، والاسهام في نشر معارف الدين القويم، وشرف العمل بهذا الاختصاص معارف القرآن العظيم وتفسيره.

دراسات سابقة: لا يزعم الباحث إنّ بحثه هذا سبق علمي ، أو نادرة سابقة لزمانها، وإنّما اطلع الباحث على جملة من الاطاريح والرسائل الجامعية ، والبحوث الاكاديمية ذات الشأن، وقد انتفع منها وفتحت له آفاق معرفية كبيرة، ولكنه يرى أنّ أسلوب بحثه هاهنا بعيد عن التعقيد والغموض وفي جزئية هامة تحاكي في اغلبها وجدان القارئ تربويًا ، وعلى هذا كان سر تنزيل القرآن الكريم وعلّة وحيه المبارك، وكذلك الاعتماد على آراء المفسرين

(١) بحار الانوار، المجلسي ، ١/ ٩٦.

دون غيرهم في فهم النص القرآني ، إذ كان البحث المعجمي هو الغالب على الدراسات السابقة.

منهجية البحث؛ فقد كان المنهج الوصفي التحليلي الذي (يعتمد على تجميع الحقائق والمعلومات، ثم مقارنتها وتحليلها وتفسيرها للوصول الى تعميمات مقبولة)[1]، مستندًا في هذه التحليلات على آراء المفسرين في فهم النص القرآني.

وكانت خطة البحث من مقدمة وثلاثة مطالب، المطلب الأول: مفهوم العقل، المطلب الثاني: ألفاظ العقل في القرآن الكريم، المطلب الثالث: وظيفة العقل في القرآن الكريم، ثمّ خاتمة وقائمة بالمصادر.

المطلب الأول: مفهوم العقل :

في هذا المطلب سيكون بحثنا في بيان العقل في اللغة ، والاصطلاح وكذلك مشتقات لفظ العقل المستعملة في القرآن الكريم، وعلى النحو الآتي:

أولاً: العقل في اللغة: تدل مادة (عقل) في اللغة العربية على حالة حبس وتقييد، قال ابن فارس (ت:٣٩٥هـ): العين والقاف واللام أصل واحد منقاس، يدل على حبسه في الشيء، أو ما يقاربه الحبسة[2].

فالعقل حبس أو وضع، ومنه عقال البعير الذي يمنعه من الانفلات، والعقل: الذي يلجأ اليه الناس فيمنعهم من عدوهم ونحوه وعلى هذا سمى العرب ما في الإنسان عقلًا ؛ لأنه يمنعه من أشياء لولاه لأنساق إليها الإنسان، ومنه (اعتقلت الرجل حبسته، واعتقل لسانه بالبناء للفاعل والمفعول إذا حُبس عن الكلام أي مُنع فلم يقدر عليه، والمعقل وزان مسجد الملجأ)[3].

قال الواحدي (ت:٤٦٨هـ): (وعقل الإنسان هو تمييزه الذي به فارق جميع الحيوان،

(١) مناهج البحث العلمي، عبد الرحيم بدر، ٢٣٤.
(٢) معجم مقاييس اللغة، ٤/ ٦٩.
(٣) المصباح المنير، الفيومي احمد بن محمد بن علي (ت:٧٧٠هـ)، ٢٧٠.

سمي عقلا لأنه يعقله، أي: يمنعه من التورط فِي الهلكة كما يمنع العقال البعير عن ركوب رأسه)[١].

وبهذا العقل: المنع، ولهذا يمنع النفس من فعل ما تهواه، مأخوذ من عقال البعير، المانع له من السير حيث شاء، وهو أصل لكل علم، وسمى العقل عقلًا ؛ لأنه يعقل صاحبه من العدول عن سواء السبيل[٢]، وهو (غريزة يتهيأ بها الإنسان إلى فهم الخطاب)[٣].

وإذا لحظنا أن لفظ (العقل) لم يرد في القرآن الكريم[٤] ، فالظاهر إن سبب ذلك هو مفهوم لفظ العقل لم يكن مستعملاً للدلالة المعروفة اليوم ، وهو ما يعلله السيد محمد حسين الطبطبائي بقوله: (وكأن لفظ العقل بمعناه المعروف اليوم من الأسماء المستحدثة بالغلبة ؛ ولذلك لم يستعمل في القرآن وإنما استعمل منه الأفعال مثل يعقلون)[٥].

ويبدو أنّ المستعمل آنذاك أيضًا لفظ (العلم) للدلالة على معنى العقل إذ (لا فرق بينهما – العقل والعلم – ؛ لأنه لا فرق عند أهل اللغة ، وأرباب اللسان بين قولهم: علمت وعقلت، فسيعلمون العلم والعقل على حد واحد، وفي معنى واحد، ويقولون: هذا أمر معلوم ومعقول، ويقولون: أعلم ما تقول، وأعقل ما تقول)[٦] ، وهو (ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات)[٧].

وقد اعتنى الباحثون في ذلك فقاموا بإعداد معجم خاص بألفاظ العقل والجوارح في القرآن الكريم، ثُمَّ تناول هذا المعجم بالدراسة الدّلالية اللغوية عبر تأصيل الدّلالات في

(١) التفسير الوسيط، ١/ ١٣٠، ظ: معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس، ٤/ ٦٩.
(٢) ظ: كتاب العين، الفراهيدي الخليل بن أحمد(ت:١٧٠هـ) ، ١/ ١٥٩.
(٣) النزعة العقلية عند الامام الشافعي، محمد إبراهيم الفيومي، ٤٢٣.
(٤) وهذا متفق عليه ومُسلّم به؛ أما في السنة النبوية فيرى ابن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) أبو عبد الله محمد إن كل حديث ورد عن النبيﷺ فيه لفظ عقل فهو موضوع، إذ قال: (لا يصح في العقل شئ، وأحاديث العقل كلها كذب)، المنار المنيف في الصحيح والضعيف، مكتب المطبوعات الإسلامية، ٦٦. ويرى الباحث إن هذا الرأي يحتاج إلى تحقيق!.
(٥) الميزان في تفسير القرآن، ٢/ ٣٣١..
(٦) المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، ٦١٧.
(٧) المصدر نفسه.

أمهات معاجم الأصول، ودراسة هذه الألفاظ بشكل عام من وجهة نظر فلسفية ، معتمدين على الدّلالة اللّغوية للجوارح والعقل من الناحية اللّغوية[١].

ثانياً: العقل في الاصطلاح:

لعل أول محاولة لرصد مفهوم العقل اصطلاحًا ظهرت في القرن الثالث الهجري فمن الملاحظ أنّ الحارث بن أسد المحاسبي(ت:٢٤٣هـ) يُعد من أوائل علماء المسلمين الذين تكلموا عن العقل ، وماهيته وافردوا له تأليفًا خاصًا، وقد تبع المحاسبي في تعريفه للعقل مُعظم العُلماء المسلمين.

والمحاسبي يذكر ثلاثة معان للعقل أحدها المعنى الحقيقي للعقل والآخران معنيان يطلقان على العقل مجازًا لأنهما من ثمار العقل ويصدران عنه.

أمّا المعنى الأصلي للعقل عنده فهو: (غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد... وإنّما عرفهم الله (إياها) بالعقل منه، فبذلك العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم... والعقل نور في القلب كالبصر نور في العين... فالعقل غريزة جعلها الله في الممتحنين من عباده أقام به على البالغين للحلم الحجة ، وآتاهم خاطب من قبل عقولهم، ووعد وتوعد وأمر ونهى وحض وندب)[٢].

فالعقل إذن عند المحاسبي غريزة، وعن هذه الغريزة تتولد المعرفة، فلا يطلق على المعنى الأصلي للعقل أنه المعرفة كما فعل البعض ولذا فهو يرجح قائلًا : (والذي عندنا أنّه (اي العقل) غريزة والمعرفة عنه تكون)[٣]، وهذه الغريزة تولد مع العبد ثم يزداد هذا العقل بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول[٤].

(١) للتوسعة ظ: ألفاظ العقل والجوارح في القرآن الكريم دراسة إحصائية دلالة ، سهام محمد أحمد الأسمر، ١.
(٢) العقل وفهم القرآن، المحاسبي(ت:٢٤٣هـ) الحارث بن اسد، ٢٠٢.
(٣) العقل وفهم القرآن، المحاسبي ، ٢٠٥.
(٤) ظ: المصدر نفسه، ٢٠٦.

أمّا حقيقة هذه الغريزة فهي غير معروفة للخلق، وانما يُعرف العقل بآثاره، فهو يقول عن العقل بأنه: (غريزة لا يُعرف إلّا بفعاله في القلب والجوارح، لا يقدر أحدًا أن يصفه في نفسه ، ولا في غيره بغير أفعاله، لا يقدر أن يصفه... بطول ولا بعرض ولا طعم ولا شم ولا مجسة ولا لون ولا يعرف إلا بأفعاله)[١].

ومن التعريفات الصريحة بمثل تعريف المحاسبي ما نلحظه في تعريف الراغب الأصفهاني (ت:٤٢٥هـ) للعقل إذ قال: هو (القوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل)[٢]، وكذلك في تعريف كل من الغزالي (ت:٥٠٥هـ)[٣]، وابن الجوزي (ت:٥٩٧هـ)[٤] للعقل نلحظ ذات المعنى.

إلّا أنّ المتأمل في كلمات الإمام علي عليه السلام (استشهد٤٠هـ) يجد أنّه عليه السلام قد سبق المحاسبي في تعريفه للعقل ومن تابعه من العلماء في ذلك بقوله عليه السلام[٥]:

رأيت العَقل عَقلينِ

فمطبوعٌ ومسمُوعُ

ولا ينفع مسموع

إذا لم يَكُ مطبوع

كما لا تنفع الشمس

وضوء العين ممنوع

ففي الإشارة إلى الأول نلحظه في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا

(١) المصدر نفسه، ٢٠٤ ، واجمالاً يبدو أن تعريف المحاسبي للعقل ذو صبغة صوفية، ولعل ذلك عائد إلى النزعة الصوفية له، يقول الزركلي (ت:١٤١٠هـ) في تعريفه للمحاسبي: بانه (من أكابر الصوفية)، الاعلام، ٢/ ١٥٣.

(٢) مفردات الفاظ القرآن، ٥٧٧.

(٣) ظ: إحياء علوم الدين، ابو حامد الغزالي(ت:٥٠٥هـ) ، ١/ ١٠٤.

(٤) ظ: كتاب الاذكياء، عبد الرحمن بن الجوزي، ٥.

(٥) ظ: الفاظ القرآن، الراغب الاصفهاني، ٥٧٨، إحياء علوم الدين، الغزالي، ١/ ١١٣، ادب الدنيا والدين، ابن ابي الدنيا، ٢٩، وورد: (العلم علمان ...)، نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ٤/ ٧٩.

يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[1]، وحيثما ذم الله تعالى الكفار في القرآن بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾[2].

وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها ، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر ؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم عوضا عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد[3].

فهنا يقتضي بيان أنّ العقل يراد به شيئان:

الأول: القوة المهيئة في الإنسان لقبول العلم فإنْ كانت قوية سمي صاحبها ذكيًا ، وكان لديه استعداد للتطور السريع أو البطيء على حسب تلك القوة، وإنْ كانت ضعيفة سمي صاحبها بليدًا مع كونه عاقلًا، وهو ما ليس مستعدًا للتطور العقلي وللوصول لدرجة بعد درجة، وأمّا أن يمكن تطوره لكن ببطء شديد، وهذه إرادة المولى سبحانه وحكمته في خلقه، فهو سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[4] ولله تعالى في خلقه شؤون.

المعنى الثاني: المراد بلفظ العقل هوالعلم: العلم والفهم الناتج عن القوة المتهيأة في الإنسان لقبول العلم بالأشياء وفهمها.

فالمعنى الأول للعقل يسمى (العقل المطبوع) وهو القوة التي خلقها الله تعالى في كل إنسان، أي الذي خلق وكان طبعاً للإنسان، والمعنى الثاني الذي تقدم يسمى (العقل المسموع) ، أي الذي ينتج من سماع المعلومات وتلقيها وليس هو الغريزة التي خلقها الله

(١) سورة العنكبوت، الآية : ٤٣.
(٢) سورة البقرة، الآية : ١٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير، ١/ ٥٩.
(٤) سورة الأنبياء، الآية : ٢٣.

تعالى في الجسم[١].

إذن فالعقل هو جهاز الإدراك أو ملكة الإدراك التي يتهيأ بها الإنسان إلى الفهم والتصور والتفكير وفهم الخطاب[٢]، وهو جزء رئيس من بناء الإنسان لأنه بناء الجزء المدرك فيه.

ثالثًا: مشتقات لفظ العقل في القرآن الكريم :

إنّ القارئ للقرآن الكريم يجد أنّ لفظ (عقل) لم يرد فيه اسمًا ولا مصدرًا ، ولا مشتقاً ولا فعل أمر، ويلحظ أنّ مشتقات لفظ (عقل) وردت في القرآن الكريم بصيغة الفعل الماضي (عقل) ، والفعل المضارع (يعقل) بصيغة المفرد والجمع، فورد الفعل الماضي (عقل) في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣]، وورد الفعل المضارع (يعقل) في ثماني وأربعين آية، منها آية واحدة ذُكر فيها(نَعقِل)، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٤]، وآية أخرى ذكرت فيها كلمة (يعقلها) وهو في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[٥]، واثنتان وعشرون آية ذُكرت فيها كلمة (يعقلون) وهو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٦]، وأربع وعشرون آية ذُكرت فيها كلمة (تعقلون) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٧].

والملفت للنظر إنّ هذه الألفاظ بعضها ورد مسبوقًا بالحث على العقل، أو الاستفهام، أو الاستنكار أو النفي هذا من جهة، كما نلحظ أيضًا إنّ القرآن الكريم لم يستعمل لفظ

(١) ظ: صحيح شرح العقيدة الطحاوية، حسن بن علي السقاف، ١٩٦.
(٢) ظ: الفكر في ضوء الكتاب والسنة، حصة سويدي، ١٧٧.
(٣) سورة البقرة، الآية : ٧٥.
(٤) سورة الملك، الآية : ١٠.
(٥) سورة العنكبوت، الآية : ٤٣.
(٦) سورة المائدة، الآية : ٥٨، و ظ: من مثل: سورة البقرة، الآية : ١٦٤،سورة الأنفال، الآية : ٢٢، سورة يونس، الآية : ٤٢.
(٧) سورة الأعراف، الآية : ١٦٩، وظ: من مثل : سورة يونس، الآية : ١٦، سورة الأنبياء، الآية : ١٠، سورة هود، الآية : ٦.

(العقل) بلفظه الاسمي المصدري، وإنّما استعمل الفعل منه (يعقل) وهو أمر يسترعي النظر ، والتفكير ويدل على أنّ القرآن لم يقصد مجرد العقل، بل المراد منه إعمال هذا العقل، يقول أستاذنا الدكتور رؤوف احمد الشمري: (وفي ذلك تنبيه إلهي بل تأكيد على أن للنفس الإنسانية قوى عديدة حرصت الآيات الكريمة على ذكر أهمها ، وهي العاقلة التي بها تكتسب المعارف والعلوم وتُدرك الحقائق الكلية)[١]، وما يكون من ثمرات إعمال هذا العقل ومن أهمها الإيمان.

وفي نهاية هذا المطلب نرى من الضرورة بمكان القول إنّ العقل المجرد عن الوحي لا يهتدي الى سواء السبيل؛ لأنّ ما يمكن إثباته بالدليل العقلي يمكن نقضه بدليل عقلي آخر وهكذا، وبهذا لا ينفك العقل البشري من الحاجة الماسة للوحي السماوي في انارة الطريق له ﷺ .

كما وتكمن حاجة العقل الى الوحي في أنّ كل الشؤون الدينية والحياة منبعها الوحي، وأنّ الوحي القرآني رسم منهجًا عقليًا لإقامة الدليل والبرهان على مصداقية ما بلغ به النبي الخاتم ﷺ ، وبهذا يكون نزول الدين لهداية العقل في الأمور كافة.

المطلب الثاني: ألفاظ العقل في القرآن الكريم :

وفي هذا المطلب نلحظ الألفاظ الدالة على حركية العقل من دون أن يُذكر فيها لفظ (العقل) والتي منها: اللب، والحجى، والحجر، والنهى[٢].. وغيرها، وهي مدلولات لها قيمتها المعرفية ، والنفسية تتنوع في الخطاب القرآني لتبلغ ذروتها في خلجات نفس المتلقي[٣]، والتي سوف نتناولها تباعًا مبينين حركيتها العقلية[٤] وعلى النحو الآتي:

(١) التأويل: العقل. النقل. إشكالية التوفيق، ٢٣٥.
(٢) ظ: الكليات، معجم في المصطلحات والفروق الفردية، الكفوي، ٦١٩.
(٣) ظ: مفهوم العقل في القرآن الكريم، د. جعفر عليوي موسى وآخر، ١١٩، تجدر الإشارة إن هذا البحث ركز على الترادف اللفظي معتمدا على اللغويين وهذا خلاف بحثنا الذي اعتمد على آراء المفسرين في بيان المعاني والدلالات.
(٤) للتوسعة ظ: حركية ألفاظ العقل في القرآن الكريم، د. محمد كاظم الفتلاوي، ١٠.

أولاً: اللُّب:

أولو الألباب: الألباب أي العقول، وهي جمع (لب)، وهو ما يقابل القشر فكأن القرآن الكريم يشير إلى أنّ الإنسان قسمان: قسم قشر وقسم لب، فالجسم هو القشر الخارجي، والعقل هو: اللب الجوهري.

واللُبُ: هو العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كاللباب، واللُبُ من الشيء وقيل هو ما زكى من العقل، فكل لُب عقلٌ وليس كل عقل لبًّا[1]، ونلحظ أنّ القرآن الكريم أشار إلى الأحكام التي لا يُدركها إلاّ العقول الزكية بأولي الألباب، نحو قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2]، يقول السيد الطبطبائي: (اللب هو العقل لأنه في الإنسان بمنزلة اللب من القشر، وعلى هذا المعنى أستعمل في القرآن)[3].

وقال محمد علي الجوزو بعد استعراضه الآيات التي وردت فيها مشتقات كلمة اللب ومعانيها: (إذا كان اللب في اللغة خالص كل شيء فيمكننا القول إنّه في القرآن ذروة التفكير، ومناط الحكمة وأساس التمييز، وينبوع الإيمان والعلم واليقين، هو عقل متميز إذن، وليس عقلًا عاديًا، بل هو عقل الصفوة من الناس، والنخبة من المفكرين، والذين وهبوا الحكمة)[4]، ثم يصف أولي الألباب بأنهم (أصحاب العقول الذكية من العلماء المؤمنين...)[5].

وقد وردت كلمة (الألباب) – جمع لُب– في القرآن الكريم ست عشر مرة، ومن أمثلته:

١. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[6]، إنّ هذه القصص القرآنية

(١) ظ: مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، ٧٣٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٣) الميزان في تفسير القرآن، ٢/ ٣٣١.
(٤) مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، ١٠٨.
(٥) المصدر نفسه، ١٠٩.
(٦) سورة يوسف، الآية: ١١١.

بما تتضمنه من مواقف تحاكي النفس والعقل في وقت واحد فهي بهذا نافذة على تجارب الماضيين[١]، ومرآة يستطيع الانسان عبرها أن يرى عوامل النصر والهزيمة، وأسباب الهناء والحرمان، وسُبل السعادة والشقاء، وطريق العّز والذلة، والخلاصة في كل ماله قيمة في حياة الإنسان وما ليس له قيمة، وهي مرآة لكل تجارب المجتمعات الماضية والرجال العظام، ومرآة نشاهد فيها ذلك العمر القصير للإنسان كيف يطول بمقدار ما يختزله من عمر كل البشر، ولكن لا تتحقق كل تلكم المعاني إلّا لمن أخذ العبرة منها، والعبرة تكمن في: (فكرة وتذكر وعظة)[٢]، نعم إنّ أُولي الألباب وذوي البصائر فقط باستطاعتهم أن يشاهدوا تلك العبر في صفحة المرآة العجيبة فما كان القرآن ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

إذ إنّ الأمر محصور بطبيعة الحال بأصحاب العقول فمن أسماء العقل اللب لأنه صفوة اللب وخلاصته[٤].

٢. قال تعالى: ﴿.. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٥]، يقول سيد قطب: (ثم يدرك اللب ويعرف، وينتفع بما يرى وما يسمع وما يجرب، وينتهي إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة، فأمّا الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة، والمشاهدات الظاهرة، فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء..

وإنّما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة- أولو الألباب- لما وراء الظواهر من حقائق المنتفعة بما ترى وتعلم، التي تذكر الله في كل شيء تراه وتلمسه ولا تنساه، ولا

(١) للتوسعة في علم القصة في القرآن الكريم ظ: أساليب القرآن الكريم، د. محمد كاظم الفتلاوي، ١٩ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (ت:٦٧١هـ) ، ٥/ ٤٧٥ .
(٣) سورة يوسف، الآية : ١١١ .
(٤) ظ: الكليات، أبو البقاء، ٦١٩.
(٥) سورة الزمر، الآية : ٩. ومن الملاحظ إن الآية تتحدث عن ثلاث مجموعات، هم العلماء والجهلة وأولي الألباب، وقد شخصهم الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث له، عندما قال عليه السلام : (نحن الذين يعلمون، وعدّونا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولو الألباب)، الكليني، الكافي، ١/ ٢١٢.

تنسى يوم لقاه..)[1].

ونلحظ إنّ الآية انتهت بالقول: إنّ أولي الألباب هم وحدهم من يدرك الفرق بين الجاهل والعالم ؛ لأنّ الجاهل لا يدرك قيمة العلم! وفي الحقيقة إنّ كل مرحلة من مراحل العلم هي مقدمة لمرحلة أخرى.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ إنّه قال: (لا خير في العيش إلّا لرجلين: عالم مطاع، أو مستمع واع)[2].

٣. قوله تعالى: ﴿.. وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[3]. نلحظ إنّ الرسوخ في العلم يكون سببًا في أن يزداد الإنسان معرفة بأسرار القرآن، ولا شك إنّ الذين رسخوا في العلم أكثر من غيرهم – كالنبي ﷺ وأئمة الهُدى– يعلمون جميع أسرار القرآن، بينما الآخرون يعلمون منها كل بقدر سعة علمه، وهذه الحقيقة هي التي تدفع الناس وحتى العلماء منهم ليتعلموا من المعلمين الإلهيين أسرار القرآن.

وبهذا كانت إشارة الآية في ختامها إلى أنّ هذه الحقائق يعرفها المفكرون وحدهم ، يقول السيد محمد حسين الطبطبائي: (الألباب جمع لب، وهو العقل الزكي الخالص من الشوائب، وقد مدحهم الله تعالى مدحًا جميلًا في موارد من كلامه، وعرفهم بأنّهم أهل الإيمان بالله ، والإنابة إليه وإتباع أحسن القول ، ثم وصفهم بأنّهم على ذكر من ربهم دائمًا ، فأعقب ذلك أنّهم أهل التذكر ، أي الانتقال إلى المعارف الحقة بالدليل وأهل الحكمة والمعرفة)[4].

٤. قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[5]. إنّ أصحاب العقول هم الذين يحفظون هذه الحقائق ويتذكرونها، رغم أنّ جميع الناس ذو عقل – عدا المجانين– فلا يوصفون جميعًا بأولي الألباب، بل هؤلاء

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٤٣.
(٢) الكافي، الكليني (ت:٣٢٩هـ) ، ١/ ٣٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية : ٧.
(٤) الميزان في تفسير القرآن، ٣/ ٢٧.
(٥) سورة البقرة، الآية : ٢٦٩.

هم الذين يستعملون عقولهم فيشقون طريقهم على ضوء نورها الساطع.

يقول ابن عاشور: (من شاء الله إيتاءه الحكمة هو ذو اللب، وإنّ تذكر الحكمة واستصحاب إرشادها بمقدار استحضار اللب وقوته، واللب في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه انفع شيء فيه)[١].

ثانيًا: النهى:

النهى ضد الأمر و(نهاه) عن كذا ينهاه (نهيًا)، والنُهية بالضم واحدة (النُهى) وهي العقول ؛ لأنها تنهى عن القبيح[٢].

وقال أبو البقاء: (ومن أسماء العقل... النهى: لانتهاء الذكاء والمعرفة والنظر إليه ، وهو نهاية ما يمنح العبد من الخير المؤدي إلى صلاح الدنيا والآخرة)[٣].

وقد ورد لفظة (النهى) في القرآن الكريم مرتين، كلتاهما في سورة طه.

١ . قال تعالى: ﴿.. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾[٤]. يقول السيد الطبطبائي: (النهى جمع نهية بالضم فالسكون: وهو العقل سمي به لنهيه عن إتباع الهوى)[٥]، فهو سبب انتهاء المتحلي به عن كثير من الأعمال المفسدة.

وفي الآية إشارة إلى أنّ كل تدبر وتفكر من أجل فهم أهمية هذه الآيات ليس كافيًا، بل إنّ العقل والفكر المسؤول هو الذي يستطيع أن يدرك ، ويطلع على هذه الحقيقة وهو الانتفاع بالنعم التي أنعم الله بها على الإنسان.

يقول السعدي: (وخص الله أولي النهى بذلك ؛ لأنّهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأمّا من عداهم، فإنّهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائحة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون

(١) تفسير التحرير والتنوير، ٢/ ٥٣٥.
(٢) ظ: مختار الصحاح، الرازي(ت:٦٦٦هـ)، ٦٨٣.
(٣) الكليات، ٦٢٠.
(٤) سورة طه، الآية : ٥٤.
(٥) الميزان في تفسير القرآن، ١٤/ ١٤٦.

وقلوبهم لاهية وأجسادهم مُعرضة)[1].

٢. قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾[2]، إنّ موضوع أخذ العبرة من تأريخ الماضين من الأمور التي يؤكد عليها القرآن والأحاديث، لكن ما أكثر أولئك الذين لا يتأثرون بأية موعظة ولا يعتبرون بها، إلّا إنّ رؤية أولو النهى هم أكثر الناس عبرة وعظة بالسابقين، يقول البقاعي: لأولي النهى (أي العقول التي من شأنها النهي عما لا ينفع فضلًا عما يضر، فإنها تدل بتواليها على قدرة الفاعل وبتخصيص الكافر بالهلاك، والمؤمن بالنجاة على تمام العلم، مع عموم القدرة، وعلى أنّه – تعالى – لا يقر على الفساد، والى غير ذلك ممن له وازع من عقله)[3].

ثالثاً: القلب :

ومن أطلاقات القلب العقل، وجمعه قلوب[4]، فيعبر به عن العقل[5]، قال ابن فارس: قلب: القاف واللام والباء أصلان صحيحان أحدهما يدل على خالص شيء وشريفه، والآخر على رد شيء من جهة إلى جهة، فالأول القلب: قلب الإنسان وغيره، سمي به، لأنّه أخلص شيء فيه وارفعه[6].

– فالمعنى الأول للقلب: هو الشكل الصنوبري الذي يقوم بضخ الدم وجريانه في العروق وبتوقفه تتوقف الحياة، ولا علاقة واضحة لهذا القلب بالعواطف والأفكار والعقائد المتعلقة بالمعنى الثاني للقلب، وهذا القلب يشترك فيه الأموات والأحياء حتى الدواب لها قلوب[7].

– المعنى الثاني: أمّا المعنى الثاني للقلب، فيوضحه الغزالي (ت٥٠٥هـ) بقوله: (هو

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٤٨٤.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٨.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، ٥/ ٥٦.
(٤) ظ: المصباح المنير، الفيومي، ٣٣٢.
(٥) ظ: مختار الصحاح، الرازي، ٥٤٧.
(٦) ظ: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس بن زكريا أبو الحسين، ٥/ ١٧.
(٧) ظ: بين القلب العضلي والمعنوي، محمد علي البار، ٥٥.

لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب المطالب، ولها علاقة بالقلب الجسماني وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته)[١].

فـ(للقلب مكانة خاصة في القرآن الكريم، والمراد به هنا ذلك الجوهر المجرد الذي ترتبط به إنسانية الإنسان، فهو عبارة أخرى عن النفس الإنسانية، ولذا تنسب إليه الأعمال النفسية من قبيل التعقل والإيمان والكفر والنفاق والهداية والرحمة والغفلة وغيرها من الحالات التي وردت في القرآن الكريم)[٢] فهو مركز اتخاذ القرار وإدراك الأمور وهو مكان العقل في الإنسان، إذ أسند فعل العقل الى القلب ليدل على إنه محله[٣]، ويبدو إن الطب الحديث يؤيد هذه الحقيقة عندما قال إن العقل ليس من وظائف الدماغ قطعًا[٤].

ولفظ القلب في القرآن الكريم ورد في مائة وأربعة وعشرين آية بصيغه المختلفة، وذلك لأهمية القلب، وقد استعمل القرآن لفظ القلب بمعنى (العقل) في الكثير منها، ومن ذلك:

١. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٥]، نلحظ في هذه الآية المباركة أن نسبت سبل إدراك الإنسان إلى القلب – العقل – والإذنين، إشارة إلى أنّه لا سبيل ثالث لأدراك الأشياء والحقائق ، يقول السيد الطبطبائي: (لما كان المعنيان جميعًا – التعقل والسمع – في الحقيقة من شأن القلب ، أي النفس المدركة فهو الذي بعث الإنسان إلى متابعة ما يعقله ، أو سمعه من ناصح مشفق عند إدراك القلب لذلك رؤية له ومشاهدة منه ؛ ولذلك عُدّ من لا يعقل ولا يسمع أعمى القلب ثم بولغ فيه بأنّ حقيقة العمى هي عمى القلب دون عمى العين..)[٦].

(١) إحياء علوم الدين، ١/ ٤.
(٢) القلب في القرآن، معهد الإمام الخميني للدراسات الإسلامية، ١.
(٣) ظ: الشخصية الإنسانية في القرآن الكريم- دراسة موضوعية، د. سعيد عبد خضر الجوعاني، ٥١.
(٤) ظ: العلم في منظوره الجديد، روبرت. م. اغروس. وآخر، ترجمة: د. كمال خلايلي، ٤١.
(٥) سورة الحج، الآية : ٤٦.
(٦) الميزان في تفسير القرآن، ١٤/ ٣٣٤.

٢. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[١]، يقول السيد الطبطبائي: (القلب ما يعقل به الإنسان ، فيميز الحق من الباطل والخير من الشر والنافع من الضار، وإذا لم يعقل ولم يميز فوجوده بمنزلة عدمه إذ ما لا أثر له فوجوده وعدمه سواء..)[٢].

وذكر الدامغاني (ت:٤٧٨هـ): (إن القلب في القرآن يأتي على ثلاثة أوجه: العقل، والرأي، والقلب بعينه الذي في الصدر، فأحد هذه الوجوه القلب، يعني العقل..)[٣].

على أنّ كثيرًا من المفسرين قد فسر القلب بالعقل، ومنهم ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (لمن كان له قلب) أي لب يَعي به، وقال مجاهد: عقل[٤]، ومن العلماء من عرف العقل بأنّه نور في القلب يعرف الحق والباطل[٥].

ويعلل الدكتور أحمد الوائلي (ت:٢٠٠٣م) سبب استعمال لفظ القلب بمعنى العقل، هو إنّ العرب استعملت هذا اللفظ لهذا المسمى في كلامهم حيث قال: (إنّ القرآن الكريم يعبر بالقلب عن العقل لأنّه يخاطب العرب حيث نزل بلغتهم وهم يعبرون عن العقل بالقلب)[٦].

رابعًا: الفؤاد:

في اللغة: هو القلب، وقيل غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه، والجمع أفئدة[٧].

وورد لفظ الفؤاد مرادفًا للفظ القلب في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعًا[٨]، وهو لا يقل في أهميته عن القلب في تعبيره عن العقل الواعي المدرك.

(١) سورة ق، الآية : ٣٧.
(٢) الميزان في تفسير القرآن، ١٨/ ٣٠٨.
(٣) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، ٣٨٥.
(٤) ظ: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٢٨.
(٥) ظ: كتاب التعريفات، الجرجاني، ١٢٠.
(٦) نحو تفسير علمي للقرآن، ٥٢.
(٧) ظ: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ١٦٦.
(٨) ظ: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ٥١٠.

والقرآن الكريم يتناول الفؤاد على انه موئل الفكر، وجهاز الإدراك أيضًا، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[١]، وقوله تعالى أيضًا: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[٢].

فالقرآن الكريم حث على استعمال الفؤاد – بمعنى العقل– في مجال المعرفة وتحمل المسؤولية، ولهذا نجد الفؤاد مقرونًا بالسمع والبصر في ستة مواطن من القرآن الكريم، وذلك لأننا نجد الدور الأساسي في المعرفة هو للعقل، ولا قيمة للتجربة الحسية بدونه ولهذا لا قيمة لقلب الحيوان ؛ لأنّه بدون فقه وعقل ولأنه ليس فؤادًا، فالعقل هو الذي يقف وراء هذه الحواس ويجعل إحساساتها إدراكات ومعارف حقيقة ، وينقلها من الغرائز والانعكاسات التي يشترك فيها سائر الحيوانات الأخرى التي زودت بمثل تلك الحواس)[٣]، ينقلها إلى دائرة الإدراك، ويوجه القرآن الكريم الفؤاد ومعه الحواس كيلا تخوض فيما لا علم لها به ؛ وذلك لأنها تتحمل المسؤولية الكاملة عن كل ما يصدر عنها.

خامسًا: الحِجر:

الحجر بالكسر العقل في اللغة[٤]، لأنه يحجر صاحبه عن ارتكاب ما لا ينبغي، حيث يتصور من الحجر معنى العقل[٥].

وجاءت في القرآن الكريم كلمة الحجر بمعنى العقل، وهو موضع واحد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[٦].

قال الآلوسي: (والحجر العقل لأنّه يحجر صاحبه أي يمنعه من التهافت فيما لا ينبغي)[٧]، والسؤال في هذه الآية (تقرير لفخامة شأن المقسم بها وكونها أمورًا جليلة حقيقة

(١) سورة الإسراء، الآية : ٣٦.
(٢) سورة الفرقان، الآية : ٣٢.
(٣) ظ: مقدمة لدراسات العقيدة الإسلامية، عدنان زرزور، ٨٢.
(٤) ظ: المصباح المنير، الفيومي، ٨١.
(٥) ظ: مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، ٢٢٠.
(٦) سورة الفجر، الآية : ٥.
(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي (ت:١٢٧٠هـ)، ١٥/ ٤٧٠..

بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول)[1] الذين يمنعون أنفسهم من الوقوع في المهالك.

سادسًا: الحلم:

الحلم: هو (الأناة، والعقل وجمعه أحلام وحلوم.. وهو حليم وجمعها حلماء وأحلام)[2]، وهو أيضًا: (ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب.. وليس الحلم في الحقيقة هو العقل لكن فسروه بذلك لكونه من مسببات العقل)[3].

وقد ورود الحلم في القرآن الكريم كصفة من صفات الله تعالى في احد عشر موضعًا، كما أنّه جاء صفة لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام في موضعين، هما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[5]، وورد صفة لإسماعيل عليه السلام: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[6].

وجاء الحلم بمعنى العقل في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[7]، وذلك عندما تعذر المشركون بأعذار متصورة لهم لرد دعوته صلى الله عليه وآله وكانت مانعًا للإتباع ، وقبول قوله لكونه كاهنًا أو مجنون ، أو شاعر أو متقول على الله سبحانه، وهذا بطبيعة الحال أمر غير واقع وهو غير نابع من عقولهم بل من استكبارهم وقولهم غير الحق، فأي عقل يدفع الحق بمثل هذه الأباطيل ، يقول السيد الطبطبائي: (إنّ عقولهم لم تأمرهم بهذا بل هم طاغون حملهم على هذا طغيانهم)[8].

(١) تفسير أبو السعود، أبو السعود، ٩/ ١٥٣.
(٢) ظ: مختار الصحاح، الرازي، ١٥٢.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، ٢٥٣.
(٤) سورة التوبة، الآية : ١١٤.
(٥) سورة هود، الآية : ٧٥.
(٦) سورة الصافات، الآية : ١٠١.
(٧) سورة الطور، الآية : ٣٢.
(٨) الميزان في تفسير القرآن، ١٩/ ١٧.

سابعًا: الأبصار:

ورد لفظ (الأبصار) في القرآن الكريم في أربعة مواضع[1]، وقد عدهم القرآن من أصحاب العقول الذين نظروا في دلالات الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها، فكانت نظرتهم نظرة فكر واعتبار وموعظة...، قال تعالى: ﴿.. فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[2].

والآية هنا تتحدث عن بني النضير وكيف أجلاهم النبي ﷺ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار.

يقول العلامة الطبرسي: (أي فاتعظوا يا اولي العقول والبصائر)[3]، (النافذة، والعقول الكاملة فإنّ في هذا معتبرًا يعرف به صنع الله- تعالى- في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تدفعهم عزتهم ولا منعتهم قوتهم، ولا حّضنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله)[4].

وبهذا نلحظ أنّ الله سبحانه طلب من أولي الأبصار الاعتبار، يدل على أنّ المطلوب من الإنسان أن يبصر بعينه وعقله معًا.

ممّا تقدم يتبين أنّ القرآن الكريم قد وجّه خطابه إلى العقلاء من بني البشر الذين لهم نصيب من الفهم والوعي والإدراك، بهذا يُفهم أنّ عدم ورود كلمة (عقل) الجامدة في القرآن الكريم دليل على أنّ المنظور القرآني لم يحصر (العقل) بمعناه الذي يحبس صاحبه عن السوء، ولا يرتقي به إلى الرسوخ في العلم، والتميز، بل أراد الإعمال له بكل ما أوتيت هذه المسميات (اللب، النهى، القلب، الفؤاد، الحجر، الأبصار، ..) من معاني حركية، إذ كل كلمة ومفردة وضعت في القرآن الكريم يراد بها توظيف لمعنى مقصود ، وإشارة إلى ذلك السلوك الذهني والحركي للإنسان المرافق للأنساق المتغيرة في العلاقات المتنوعة بين الإنسان والإنسان الآخر ، والإنسان والكون والإنسان والله سبحانه، لتحقيق علة الوجود

(١) ظ: سورة آل عمران ، الآية : ١٣، سورة النور، الآية : ٤٤، سورة ص، الآية : ٤٥.
(٢) سورة الحشر، الآية : ٢.
(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، ٥/ ٢٥٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ٥٤٦.

وسر رعاية السماء.

المطلب الثالث: وظائف العقل في القرآن الكريم :

العقل في المنظومة الإسلامية أداة فاعلة وعليه مناط الثواب والعقاب، وبالعقل كرم الله تعالى الإنسان على سائر المخلوقات، وبطبيعة الحال إنّ العقل له حدود يقف عندها بحسب ما يتمتع به من إدراك ووعي، إذ العقل البشري عقل محدد بالأفق الذي يستشعره بالحواس، وما خلاف ذلك يقف عاجزًا أمام امكانياته وقدراته ومن ثم من ثمار هذا العجز هو الإيمان بالغيب وإنّ فوق كل ذي علم عليم.

ولكي يأخذ العقل مداه الذي وجد من أجله ، دعا القرآن الكريم الى إعمال العقل إذ لا تخلو آية من آياته الكريمة إلا وفيها حث للعقل على التفكر والتذكير ، والتدبر لأحقاق الحق وإتباعه وإبطال البطال واجتنابه، ولا غرو أن يراها بعض الباحثين (أنَّ دراسةَ هذه الوظائف في البيت والمدرسة والجامعة، وتعميمَ فهمها وتطبيقها واجبٌ شرعيٌّ، يسنده واجبٌ عقليٌّ أيضاً)[1].

مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ العقل المجرد لا يهدي الإنسان الى سبيل الرشاد والهداية؛ لأنّ ما يمكن إثباته بدليل عقلي، يمكن نقضه بدليل عقلي آخر، وبهذا فالإنسان لا تنفك حاجته الماسة للوحي السماوي ليستنير الطريق السوي.

لا سيما فيما يتعلق بشؤون الدين والحياة ؛ لأنّ الوحي أساس الدين والقرآن الكريم اختط منهجًا عقليًا على إقامة البراهين والأدلة على مصداقية ما بلغ به النبي الخاتم ﷺ ، وإنّ الدين القويم أرشد بنزوله العقل في جميع الأمور.

وفي هذا المطلب سنقف على وظيفة العقل عن طريق هدي بعض آيات القرآن الكريم وآراء المفسرين فيها وعلى النحو الآتي:

(١) وظائف العقل في القرآن، عبد الحكيم الانيس، ٩.

أولاً: وظيفة التفكر:

وهذه الوظيفة من أبرز ما ورد في آيات القرآن الكريم، وكان فيها دعوة الإنسان الى إعمال عقله، وتعريف التفكر هو: (إعمال الفكر، أي الخاطر العقلي للاستفادة منه، وهو التأمل في الدلالة العقلية)[1].

وسبب هذه الدعوة من القرآن الكريم أنّ كثير من الناس لا يحسن التفكر والتدبر، ولا يميز بين ما هو صائب وبين ما هو غير ذلك، ومن ثم يقع في التيه ويتخبط في الباطل، لهذا حث عليه القرآن المجيد، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

فنلحظ الآية الكريمة تعقد مقارنة بين منافع الخمر والميسر ، وما فيه من مكاسب مادية قليلة وبين مضاره وأثمه وسوء عواقبه الكبيرة التي لا تقف عند حدود هذه الحياة الدنيا، وإنّما تمتد الى العالم الآخر ودخول النار، (وبناء على ذلك، فكل إنسان عاقل لا يقدم على الإضرار بنفسه كثيرًا من أجل نفع ضئيل)[3]

وفي الآية محل الشاهد نلحظ أيضًا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[4]، فنلحظ في هذه الآية الكريمة دعوة إلى أن يكون تفكيرنا تفكيرًا عمليًا يربط بين حياة الدنيا وما فيها من آيات عظيمة والآخرة التي إليها المآل، ويصل إلى العلاقة بينهما، وأن لا يتوقَّف تفكيرنا على حدود هذه الحياة الدنيا مما يجعل له قيمة ولا معنى، وحين ذاك تختل معه قيمة الإنسان والقيمة الحقيقة لوجوده، فحياة الإنسان أوسع من نطاق هذه الدنيا فهي ممتدة في الدنيا والآخرة معًا.

وقد وضح العلامة محمد حسين الطبطبائي قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، وعلاقتها

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٥١.
(٢) سورة البقرة، الآيتان : ٢١٩ – ٢٢٠.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ٢/ ١١٣.
(٤) سورة البقرة، الآيتان : ٢١٩ – ٢٢٠.

بالآيتين محل البحث، فقال: (وفي الآية أولًا: حث على البحث عن حقائق الوجود ومعارف المبدأ والمعاد وأسرار الطبيعة، والتفكر في طبيعة الاجتماع ونواميس الأخلاق وقوانين الحياة الفردية والاجتماعية، وبالجملة جميع العلوم الباحثة عن المبدأ والمعاد وما بينهما المرتبطة بسعادة الإنسان وشقاوته.

وثانيًا: إنّ القرآن وإنْ كان يدعو إلى الطاعة المطلقة لله ورسوله من غير أي شرط وقيد، غير أنّه لا يرضى أن تؤخذ الاحكام والمعارف التي يعطيها على العمى والجمود المحض، من غير تفكر وتعقل يكشف عن حقيقة الأمر، وتنور يستضاء به الطريق في هذا السير والسرى)[1].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، لابد للعقل من التفكر في آيات الله سبحانه في الأرض وكل ما فيها من تنوع تضاريسها ومناخها، والتفكر في السماء وما أودع فيها سبحانه من نجوم وكواكب، وسواء كان التفكير بالجملة، أو بالتفصيل فذاك مما يبهر الإنسان الذي يعمل عقله بالتفكر والتأمل في قدرة الخالق وعظمته وسمو مقامه، وإنّه سبحانه بديع السماوات والأرض، ومدى قدرته وسطوته وجبروته، ومن ثم النتيجة الحتمية لكل من أعمل عقله بالتفكر هو إنّ الله سبحانه أهلًا للعبادة وتوحيده بما يحب ويرضى.

ولهذا الأمر ختمت الآية الكريمة كلّ المعالم العظيمة ، والقدرة الجليلة لله سبحانه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: (إنّ في ذلك الذي فعله الله – تبارك وتعالى– من بسط الأرض طولًا وعرضًا ومن تثبيتها بالرواسي، ومن شقها بالأنهار ...

لآيات باهرة، ودلائل ظاهرة على قدرة الله – تبارك وتعالى– ورحمته بعباده، لقوم يحسنون التفكر، ويطيلون التأمل في ملكوت السماوات والأرض)[3].

(١) الميزان في تفسير القرآن، ٢/ ١٦٤.
(٢) سورة الرعد، الآية : ٣.
(٣) التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، ١٥/ ١٢٢.

ويؤكد هذا المعنى المفسر الخازن (ت:٦٤١هـ) في قوله: (لقوم يتفكرون يعني فيستدلون بالصنعة على الصانع، وبالسبب على المسبب، والفكر هو تصرف القلب في طلب الأشياء)[١].

ثانيًا: وظيفة التذكر :

يُعد التذكر من عمليات العقل، وهو مقدمة لها، ولا يمكن أن يستغنى عن التذكر، فهو يعمل على جلب معرفة وخبرة قديمة وعلوم ومعارف، غشيتها الغفلة أو أصابها النسيان، إلّا أنّ العاقل يعمل عقله بوظيفة التذكر ويستحضرها وذلك أنّ (أصحاب العقول هم الذين يحفظون هذه الحقائق ويتذكرونها)[٢].

وهذا مما دعا إليه القرآن المجيد فقد أكد على إعمال العقل فيه، ويتضح ذلك جليًا في الآيات التي تحدثت عن هذه الوظيفة في القرآن الكريم والتي منها على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٣]، فأصحاب العقل الفاعل غير المعطل يدركون قيمة الحكمة ومقامها، فيتعظون وحين ذاك يعملون، وهذا السبب الذي ربط القرآن الكريم وظيفة التذكر بالعقل الفاعل (اللب) جوهر الإنسان دون غيره ممن عطلت عقولهم، وبهذا يعلل الشيخ الطبرسي (ت:٥٤٨هـ) هذا الارتباط بين وظيفة التذكر والعقل الفاعل (اللب) بقوله: (إن قيل: لم عقد بأولي الألباب التذكر، وكل مكلف ذو لب؟ قيل: لم تطلق على جميع المكلفين هذه الصفة، لما فيها من المدحة، فلذلك عقد التذكر بهم، وهم الذين يستعملون ما توجبه عقولهم من طاعة الله في كل ما أمر به، ودعا إليه)[٤].

نعم ، فحِكم الله تعالى العظيمة لا تأتي الى كل إنسان إلّا من وهبه الله سبحانه الحكمة بالعلم والعمل، فبصّره بالمنافع والخيرات، ومن خيراتها هي السعادة في الدنيا والآخرة،

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل، ٣/ ٥.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ٢/ ٣١٧.
(٣) سورة البقرة، الآية : ٢٦٩.
(٤) تفسير مجمع البيان، ٢/ ١٩٤.

والتزحزح من النار ودخول الجنة دار القرار؛ ولهذا بعث ربنا الأنبياء والرسل ليقوموا بالتذكير، فكان أن انقسم الناس على صنفين: صنف أخذ بما ذكر وانتفع في الدارين، واجتنب الهاوية وفاز بالنعيم المقيم، وهم بالتأكيد الذين أعملوا عقولهم بوظيفة التذكر، وصنف آخر كانوا على عكس ذلك، عطلوا وظيفة العقل بما ران عليهم من الكفر والجهود[1].

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2]، نلحظ في هذه الآية الكريمة أنّ أصحاب العقول السليمة الذين احسنوا توظيفها بالتذكر بما اتضح عندهم من صدق دعوة الإسلام وارتباط القرآن الكريم بالسماء، وإنّ النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء وأنّ كل ما جاء به هو حق مبين.

فهذا التمييز ما كان أن يكون عندهم إلّا بعد أن أعملوا العقل بوظيفة التذكر، وربط الأمور ببصيرة الفهم والادراك، وهذه الخاصية لا تكون إلّا عند مؤمن حي يبصر ويعلم ويعمل، أمّا غيره ممن عطل وظيفة العقل فهو أعمى وإن كان له نواظر فلا يعلم ولا يعمل ولا يتعظ ولا يدرك الحق.

والمفسر الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) يؤكد هذا المضمون وخلاصته الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، إذ قال: (أي الذين عملوا على قضيات عقولهم، فنظروا واستبصروا)[3].

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[4]، وفي هذه الآية الكريمة خطاب الى النبي الأكرم ﷺ ؛ ليحث الناس على التأمل والتدبر في آيات القرآن العزيز، وهذا التدبر يحتاج الى مقدمات أساسية لا محيص من توافرها في كل من رام فهم كتاب الله سبحانه ، ومنها حصول العلوم والمعارف وهذه العلوم والمعارف لا تكون إلّا فيمن كان له عقل فاعل غير معطل، وقد وظفه صاحبه في التذكر لينتج حين ذاك ثمرة

(١) ظ: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ١١٥.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٩.
(٣) الكشاف، ٢/ ٥٢٤.
(٤) سورة ص، الآية: ٢٩.

التدبر، أي أنّ (أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدلّ هذا على أنّه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب)[1].

أمّا من لم يوظف عقله بالتذكر فقد حرم نفسه من التدبر في آيات الله الباهرات، وظلم نفسه بتعطيل عقله وجموده، فالآية محل الشاهد كما أنّها مدح لمن وظف عقله فإنّ فيها (تعريض بأنّ الذين لم يتذكروا بالقرآن ليسوا من أهل العقول، وأنّ التذكر من شأن المسلمين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، فهم ممن تدبروا آياته فاستنبطوا من المعاني ما لم يعلموا، ومن قرأه فتذكر به ما كان علمه وتذكر به حقّا كان عليه أن يرعاه، والكافرون أعرضوا عن التدبر فلا جرم فاتهم التذكر)[2].

قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[3]، نلحظ في هذه الآية الكريمة توضيح لبعض مهام القرآن الرسالية ، وغاية انزاله على النبي الخاتم ﷺ لينبه به الناس ويحذرهم من سوء العاقبة إنْ أصرّوا على الكفر والشرك والعصيان ويرشدهم الى سبل النجاة ، والفوز الكبير باعتقاد التوحيد وإخلاص الإيمان به سبحانه، ولا يفهم هذه المعاني إلّا من وظف عقله بالتذكر ولهذا (خص – سبحانه – بالتذكر أولى الألباب، لأنهم هم الذين ينتفعون بهداية القرآن الكريم، أمّا غيرهم فهم كالأنعام بل هم أضل)[4].

نعم ، فالذين لا يعملون العقل ولا يوظفونه بالتذكر هم بذلك في الحد الأدنى من المخلوقات، فما امتاز به الإنسان على غيره من المخلوقات إلّا بالعقل، وإذا لم يوظفه بإعماله بالتذكر فهو بهذا فقد الأفضلية والفضيلة، يقول المفسر الرازي (ت:٦٠٦هـ): (هذه الآية دالة على أنّه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة له إلّا بسبب عقله، لأنّه تعالى بين أنّه إنّما أنزل هذه الكتب، وإنّما بعث الرسل لتذكير أولى الألباب، فلولا الشرف العظيم والمرتبة العالية لأولى

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ٧٨٤.
(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٣/ ١٤٩.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٥٢.
(٤) التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، ٧/ ٥٨١.

الألباب لما كان الأمر كذلك)[1].

وهذا الشرف والخصيصة للعقلاء بالتذكر أنّه يفتح العقول ، ويوسع مداركها بتلاقح العلوم وازدياد المعرفة بذلك، وهذا لعله مضمون قول الإمام علي عليه السلام: (لقد علمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب يفتح كل باب ألف باب)[2].

ويؤكد هذا المعنى قول الغزالي (ت:٥٠٥هـ): (فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرًا، وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة ، فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص ، أثمرت معرفة أخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فإذا حصلت معرفة وازدوجت مع معرفة أخرى حصل منها نتاج آخر، وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية وإنّما ينسد طريق زيادة المعارف بالموت أو العوائق)[3].

ثالثًا: وظيفة التدبر

من الأوامر الربانية الصريحة للناس التدبر في كتاب الله تعالى، وهذا التدبر يحتاج الى مقدمات معرفية وكذلك الى نفوس نظيفة ، وعقول منفتحة، وقد ذم القرآن الكريم كثير من الناس المقفلة قلوبهم المعطلين لعقولهم[4]، فقال سبحانه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[5]، والآية تذم كل إنسان يسمع كلام الله سبحانه فلا يسترعي ذهنه له، ولا يفهم ما يقوله الكتاب العزيز، ومن ثم تكون النتيجة لا يعمل به، فمن يكون هكذا فهو داخلًا تحت مضمون هذه الآية وتوبيخها، إذن كل من أعرض وتغافل عن القرآن الكريم، وامتنع عن التفاعل مع نصح آيات القرآن المجيد فهو ممن على قلوبهم أقفالها، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن

(١) تفسير مفاتيح الغيب، ١٩/ ١١٩.
(٢) بحار الأنوار، المجلسي، ٢٦/ ٢٩.
(٣) إحياء علوم الدين، ٤/ ٤٢٦.
(٤) ظ: العقل في القرآن الكريم، محمد حسين فضل الله، ١٤.
(٥) سورة محمد ، الآية : ٢٤.

يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1].

والتدبر هو النظر الى مآل الأمور وخاتمتها، وحين ذلك تكون العبرة والعظة للإنسان المتدبر، قال الجرجاني: (التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور)[2]، وبهذا المضمون حث القرآن الكريم الناس على تفهم آياته ومقاصدها العظيمة، وإعمال العقل في شأن القرآن الصادر من عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[3]، يقول العلامة الطبطبائي: (تدل الآية على ضرورة التدبر في القرآن الذي هو بمعنى التفهم)[4]، وبطبيعة الحال المؤمن أولى من غيره في أن يعمل عقله وفكره للنظر والتأمل في آيات الكتاب الحكيم لتفهم معانيه ومعارفه ، واستخراج كنوزه والانتفاع منها في تنظيم الحياة وشؤونها كافة.

فـ(للقرآن اصطكاك مع جميع العلوم والصناعات المتعلقة بأطراف الحياة الإنسانية ومن الواضح اللائح من آياته النادبة إلى التدبر والتفكر والتذكر والتعقل ، أنّه يحث حثّا بالغًا على تعاطى العلم ، ورفض الجهل في جميع ما يتعلق بالسماويات والأرضيات والنبات والحيوان والإنسان، من أجزاء عالمنا وما وراءه من الملائكة والشياطين واللوح والقلم ، وغير ذلك ليكون ذريعة إلى معرفة الله سبحانه، وما يتعلق نحوا من التعلق بسعادة الحياة الإنسانية الاجتماعية من الأخلاق والشرائع والحقوق وأحكام الاجتماع)[5].

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[6]، فالذي يعمل عقله يقوده الى الفلاح والنجاح واتباع الأفضل والذي هو من صفات العقلاء، وأمّا مَن أغفل ذلك وعطل ادراكه بتعطيل وقفل التدبر فلا يقع اختياره إلّا على ما هو الأدنى الارذل

(١) سورة الانعام، الآية: ٢٥.
(٢) كتاب التعريفات، ٥٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٤) القرآن في الاسلام، ٢٤.
(٥) الميزان في تفسير القرآن، ٥/ ٢٧٢.
(٦) سورة المؤمنون، الآية : ٦٨.

مما ورثه عن آبائه المنحرفين الذين طمست أبصارهم عن اتباع الحق والاستنارة بهدي السماء.

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوي: (إنهم لو تدبروه لوجدوا فيه من العظات والآداب والأحكام، والقصص، والعقائد، والتشريعات ما يسعدهم ويهد بهم إلى الصراط المستقيم. فالجملة الكريمة تحضهم على تدبر هذا القرآن؛ لأنهم إن تدبروه تدبرًا صادقًا. لعلموا أنّه الحق الذي لا يحوم حوله باطل)[1].

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ ٱللهِ وَتِلْكَ ٱلأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، نعم لهذا القرآن العظيم تأثير عميق جدًا حتى على الجمادات، حيث أنّه لو نزل على الجبال مع تركيب العقل لهزها ، وحركها وجعلها في وضع من الاضطراب المقترن بالخشوع والانقياد لمواعظه.

إلّا أنّه – مع الأسف – هذا الإنسان القاسي القلب يسمع آيات الله سبحانه تتلى عليه ، ولا تتحرك روحه ولا يخشع قلبه ولا يعمل عقله في التدبر[3].

نعم ، من مقدمات التدبر في معاني القرآن الكريم ومواعظه هو الاستماع للآيات الكريمة، وهذا الاستماع مفتاح للعقل واعماله في التفهم، ولكن لا قيمة لهذا الاستماع ما لم يكن من وراءه تأمل فيما يسمع الإنسان ، ويعمل عقله ويوظف امكانياته لهذا الغرض الشريف الذي فيه تنظيم للحياة الخاصة والعامة ونجاة من الهلاك، وقد وبخ القرآن الكريم مَن يسمع ولا يعمل عقله، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾[4].

يقول المفسر الزمخشري: (معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون ، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام

(١) التفسير الوسيط ، ١٠/ ٥٠.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٣) ظ: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ٣٨٤، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ١٨/ ٢١٩.
(٤) سورة يونس، الآية: ٤٢.

النبوة ولكنهم لا يصدقون ، ثم قال: أتطمع أنّك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأنّ الأصم العاقل ربما تفرّس واستدلّ إذا وقع في صماخه دويّ الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعًا فقد تمّ الأمر)[1].

وظيفة التدبر من الوظائف العقلية الإنسانية التي ميزت الإنسان عن سائر المخلوقات، فإعمال العقل على وفق المعطيات الصحيحة ، والاتعاظ من قصص الآخرين والتأمل في كثير من الأمور وعواقبها ، يضيف للإنسان خبرة تراكمية وإنْ لم يكن هو موضع الحدث فيها، وإنّما العبرة كانت بفضيلة (إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له ، وأصله أنّه من النظر في دُبُر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للمتأمل بادئ ذي بدء)[2].

وتجدر الإشارة أنّ إعمال العقل بالتدبر وإنْ كان لا ينحصر في آيات القرآن الكريم إلّا أنّ نصوص القرآن دعت الى التدبر في آياته ، وكذلك الروايات بل ولم تنحصر الدعوة الى التدبر على المؤمنين فقط بل شمل كل البشر على التدبر والتفكر، والنظر في آيات القرآن الكريم وتفهمها كل بقدره وطاقته، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[3]، قال العلامة السيد الطبطبائي في تفسيرها: (وتيسير القرآن للذكر هو إلقاؤه على نحو يسهل فهم مقاصده للعامي والخاصي والأفهام البسيطة والمتعمقة كل على مقدار فهمه)[4].

إذن الكل مدعو الى التدبر والتفكر في آيات القرآن الكريم، أمّا إعمال العقل في التفسير فذاك محل تحقيق إذ لم يقف الباحث – بحسب تتبعه – على نصوص قرآنية ، أو أحاديث للمعصوم ﷺ تدعو الى التفسير وانما كانت الدعوة الى التدبر.

ويرى بعض الباحثين أنّ علماء المسلمين قد وقفوا على طريقة تفسير القرآن الكريم بالعقل مواقف متعددة، فمنهم من منع وآخر أجاز ومتوسط، ونشأت إثر ذلك مدارس

(١) تفسير الكشاف، ٢/ ٣٤٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٣٨٥.
(٣) سورة القمر، الآية: ١٧.
(٤) الميزان في تفسير القرآن، ١٩/ ٦٩.

فكرية متعددة منها : الأثرية ، والعقلية ، ومدرسة ثالثة جمعت بين المدرستين[1].

وهذا أمر ليس محل تحقيقه ها هنا ؛وذلك لتقيد الباحث بعنوانه بحثه ومضمونه، ولكن اقتضت الإشارة له لوجود المناسبة لذلك.

الخاتمة:

وفي نهاية هذه الرحلة في مفهوم العقل ومعاني ألفاظه ، ووظائفه في القرآن الكريم الكاشف عنها بآراء المفسرين نصل الى شاطئ الخاتمة لتدوين ما لحظناه من الأمور المعرفية التي بدت للباحث على النحو الآتي:

– العقل سر عظمة الإنسان وعنوان تميزه على سائر المخلوقات، وعبره كانت افضلية الإنسان ومحل شرف التكليف والخطاب السماوي.

– لحظنا أنّ الآيات القرآنية أعطت مدلولات حركية لمعاني لفظ العقل بعيدًا عن الجمود، وقد ناسبت المدركات والتصورات العقلية وبما تناغم خلجات نفس المتلقي.

– مدح القرآن الكريم العقل الذي يحلل ويستخلص ويستنتج ويقارن، وذمّ العقول الجامدة مع وجود جوارح السمع والبصر.

– عن طريق ألفاظ العقل التي ذكرها القرآن الكريم نلحظ أنّ هناك ثلاث مستويات للآيات التي وردت فيها الفاظ العقل، المستوى الأول : آيات ذكرت العقل وهي في محل حث على إعماله، والمستوى الثاني : آيات تثني وتشيد بالذين يعملون عقولهم بطريقة صحيحة، والمستوى الثالث : كانت آيات تذم وتوبخ الذين يعطلون عقولهم.

– العقل المجرد بوحده لا يهدي الإنسان الى الهداية؛ لأنّ الدين منبعه الوحي، والقرآن الكريم رسم منهجًا عقليًا لإقامة الأدلة فالوحي ضرورة حتمية لأنارة طريق إعمال العقل.

– في خِضَمِّ التحديات والاختلافات التي تعصف بالمجتمع الإسلامي وتكالب القوى الخارجية ، يجدر بالمسلم إعمال العقل بكل ادراكاته على وفق المنهج القرآني، وأن تكون

(١) للتوسعة ظ: مكانة العقل في القرآن واثره في التفسير ، د. عماد طه أحمد الراعوش ، ٣٥١.

لديه رؤية واضحة ناضجة تنسجم مع حجم التحديات ، وتحصين الشباب في مواجهتها للحفاظ على الهوية الإسلامية.

– ليس القرآن كما صوره بعض أعدائه كتابًا يعيق النظر العقلي، ويدعو إلى التسليم الإيماني على الدوام بل هو على العكس من ذلك، إنّه يدعو إلى التفكير العقلي ويقوم عليه.

– هناك فرق في معاني التدبر والتفكر والتذكر، فالتدبر النظر في عواقب الأمور، والتفكر عملية يحصل عن طريقها على معرفة جديدة، والتذكر تكرار المعارف لترسيخها.

– كما اتضح أنّ هناك فارق اصطلاحي بين التدبر والتفسير، فالتدبر متاح للجميع على اختلاف استيعابهم أما التفسير فهو مختص بالعلماء.

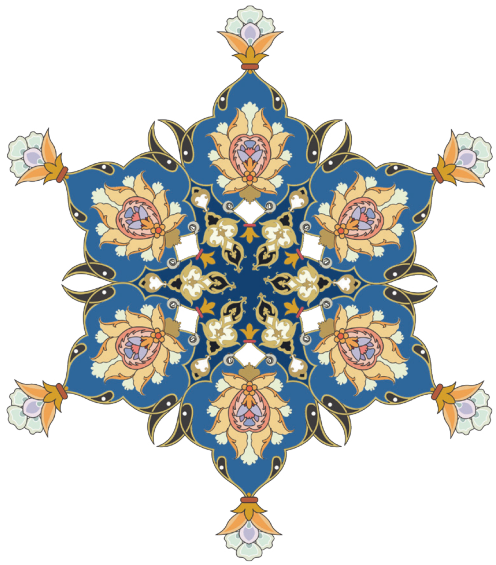

المصادر و المراجع

١. خير ما نبدأ به: القرآن الكريم

٢. إحياء علوم الدين، الغزالي أبو حامد (ت٥٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

٣. ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد الحنفي(ت:٩٨٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

٤. أساليب القرآن الكريم –دراسة في النظرية والتطبيق–، محمد كاظم الفتلاوي (الدكتور)، الرافد للمطبوعات، بغداد، ٢٠٢٢م.

٥. الاعلام، الزركلي خير الدين (ت:١٤١٠هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.

٦. ألفاظ العقل والجوارح في القرآن الكريم دراسة إحصائية دلالة، سهام محمد أحمد الأسمر، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٧م.

٧. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م.

٨. بين القلب العضلي والمعنوي، محمد علي البار، مجلة الإعجاز العلمي، جدة – هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، العدد ٥، ٢٠٠٠م.

٩. التأويل: العقل. النقل. إشكالية التوفيق، رؤوف أحمد الشمري(الدكتور)، مجلة كلية الدراسات الإسلامية (كلية الفقه)، جامعة الكوفة، السنة٢، العدد٣، ٢٠٠٦م.

١٠. التعريفات، الجرجاني علي بن محمد السيد الشريف، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة.

١١. تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور الطاهر، مؤسسة التاريخ، بيروت، (دت).

١٢. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير عماد الدين(ت:٧٧٤هـ)، المكتب الثقافي، الأزهر، القاهرة، ٢٠٠١م.

١٣. تفسير الكشاف، الزمخشري (ت:٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.

١٤. التفسير الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي علي بن احمد (ت:٤٦٨هـ)، تحقيق عادل احمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت).

١٥. التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي (الدكتور)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٨م.

١٦. تفسير مفاتيح الغيب، الرازي فخر الدين (ت:٦٠٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م.

١٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة صفا، ٢٠٠٢م.

١٨. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي محمد بن احمد (ت: ٦٧١هـ)، دار البيان العربي، القاهرة، ٢٠٠٨م.

١٩. حركية ألفاظ العقل في القرآن الكريم، محمد كاظم الفتلاوي (الدكتور)، مجلة ينابيع، مؤسسة الحمة الإسلامية، النجف الاشرف، ١٤٣٣هـ، العدد ٤٦.

٢٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي شهاب الدين السيد محمود البغدادي (ت:١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

٢١. الشخصية الإنسانية في القرآن الكريم- دراسة موضوعية، سعيد عبد خضر الجوعاني(الدكتور)، ديوان الوقف السني، بغداد، ٢٠٠٩م.

٢٢. صحيح شرح العقيدة الطحاوية، حسن بن علي السقاف، دار الإمام النووي، عمان، ١٩٩٥م.

٢٣. العقل في القرآن الكريم ، محمد حسين فضل الله ، المركز الثقافي، بيروت، ٢٠١٣م.

٢٤. العقل وفهم القرآن، المحاسبي الحارث بن أسد (ت:٢٤٣هـ)، تحقيق حسين القوتلي، ط٣، دار الكندي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢م.

٢٥. العلم في منظوره الجديد، روبرت. م. اغروس. وآخر، ترجمة د. كمال خلايلي، عالم المعرفة، الكويت، العدد، ١٣٤، ١٩٨٩م.

٢٦. الفكر في ضوء الكتاب والسنة، حصة سويدي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، السنة ١٣، العدد٣٦، ١٩٩٨م.

٢٧. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٣٤، ٢٠٠٤م.

٢٨. القرآن في الإسلام، محمد حسين الطبطبائي، المترجم السيد أحمد الحسيني، الناشر: سازمان تبليغات إسلامي، ١٤٠٤هـ.

٢٩. القلب في القرآن، معهد الإمام الخميني للدراسات الإسلامية، كربلاء المقدسة، (دت).

٣٠. الكافي، الكليني (ت:٣٢٩هـ)، تحقيق الشيخ علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٣هـ ش.

٣١. كتاب الأذكياء، ابن الجوزي عبد الرحمن (ت:٥٩٧هـ)، مكتبة المعاهد العلمية، القاهرة، ١٩٢٥م.

٣٢. كتاب العين، الفراهيدي الخليل بن أحمد (ت:١٧٠هـ)، دار ومكتبة المعرفة، (دت).

٣٣. الكليات، الكفوي أبو البقاء (ت:١٠٩٣هـ) ، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٣م.

٣٤. لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن علي ب محمد (ت:٦٤١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ .

٣٥. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت:٥٤٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٣٦. مختار الصحاح ، الرازي زين الدين محمد (ت:٦٦٦هـ)، دار الرسالة، الكويت، ١٩٨٣م.

٣٧. المصباح المنير، الفيومي احمد بن محمد (ت:٧٧٠هـ)، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ٢٠٠٨م.

٣٨. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م.

٣٩. المعجم الوسيط، لجنة التأليف، مجمع اللغة العربية ، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م.

٤٠. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس بن زكريا (ت:٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

٤١. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت:٤٢٥هـ)، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، بيروت، ط٤، ١٤٢٥هـ.

٤٢. مفهوم العقل في القرآن الكريم، جعفر عليوي موسى (الدكتور) ووصال حميد ناصر، مجلة كلية التربية، الجامعة المستنصرية، ٢٠٢١م، العدد ٤.

٤٣. مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، محمد علي الجوزو ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣م.

٤٤. مقدمة لدراسات العقيدة الإسلامية، عدنان زرزور، مكتبة دار الفتح، دمشق، (دت).

٤٥. مكانة العقل في القرآن وأثره في التفسير، عماد طه أحمد الراعوش (الدكتور)، مجلة العلوم الشرعية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٣هـ، العدد ٢٤.

٤٦. المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ابن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) أبو عبد الله محمد، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٤٧. مناهج البحث العلمي، عبد الرحيم بدر، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٤م.

٤٨. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطبطبائي، دار الكتاب العربي، بغداد، ٢٠٠٩م.

٤٩. النزعة العقلية عند الإمام الشافعي، محمد إبراهيم الفيومي، جامعة الأزهر، (د ت).

٥٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي برهان الدين ابي الحسن (ت:٨٨٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

٥١. الوافي بالوفيات، الصفدي (ت:٧٦٤هـ)، تحقيق احمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.

٥٢. الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، الدامغاني أبي عبد الله الحسين (ت:٤٧٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.